رغيف بالدم

قصة : د. سيد شعبان

منذ فترة لم امسك بالقلم، مايحدث أصابني بتبلد غريب، بت أشبه بكائن ممغنط، يقولون إنهم يرقمون كل شيء، تلاعبوا في وصلات عقولنا، يستخدمون حيل الذكاء الاصطناعي،

لم أعد ذلك الفتى الذي يثير صخبا، كنت اهرع إلى المذياع ألتقط دقات ساعة الجامعة، على أية حال أرجعت ذلك الكسل إلى كبر السن أو لعل الذين يسكنون البنايات الشاهقة يحجبون الهواء ومعه أثير الإذاعة، أخبرني زميلي في المدرسة أن إذاعة لندن القسم العربي توقف، بت مندهشا، تحسرت على الايام الجميلة.

تراكمت كتبي فوق بعضها، لم يعد لدي شغف، رغم أنني أمتهن الكتابة، بت أتساءل ما سبب هذا؟

كل شيء يبدو هادئا في الصحراء، هدوء أشبه بالرتابة، أحاول ان أدون وقائع أيامي، أجد متسعا لعمل مايلزم، تستطيع أن تصفني بكاتب فقد ظله، لا أحد ينشغل برجل بعيد عن أضواء مدينة ضربها العجز، لم يعد بها غير الذين يثرثرون دون توقف، لقد مضى ألف عام، تهدمت أسوارها، غدت قلعة الجبل مرتعا للبوم، أشاهد التلفاز فأنتفض؛ هؤلاء وحوش قتلة، أي شيطان يدفع بهم إلى هذه الجرائم،؟

لم يعد في شريعة الغاب غير القتل والخراب، أنصرف حيث النافذة؛ اتلمس الهواء، أنظر الناس يغدون ويروحون كل يدب نحو وجهته، لايعنيهم مايحدث، كأن الذين عند الحدود الشرقية لايستحقون الحياة، تذكرت أستاذي حين درس لي مادة الجغرافيا، كان يثني على كتابات جمال حمدان، رغم أن هذا الأخير مات في ظروف استثنائية، تثير تلك الكلمة سخريتي، منذ أن ولدت وأنا أسمعها من أبي بل من الأخ الكبير،!

أحول وجهتي ناحية حائط الحجرة، أراه باهتا عن ذي قبل، ثمة خربشات مضى عليها زمن، كنت أحلم بعالم تسكنه أزواج الحمام، تنطلق فرحة الحملان لاتخاف الكلاب من أي فصيلة، بالفعل ذلك وهم!

أنتبه لصياح زوجتي:

ألم تحضر أرغفة الخبز، سيغلق المخبز أبوابه، اقترب موعد الإفطار، ينطلق صوت إذاعة القرآن الكريم، أراها تستعد لزيارة أقارب لنا، اشترت بنصف الراتب لحما، ربما نتسَول بقية الشهر، فالعيد على الأبواب، تحتاج ابنتي حذاء، وابني الصغير يلح على بأن أحضر له طائرة، يريد أن يحملها بالطعام ليساقط على أطفال غزة، سألت صغيرتي:

لم تحتاجين الحذاء؟

أجابتني بأن صديقة لها من هناك تدمى قدمها، أحاول تدبير مالا يكفي لأيام العيد.

تصيح ابنتي:

لقد قتلوا من كانوا يطبخون لأطفال غزة!

يخرج النعسان بايدن، إنه ليس متأكدا إن كان ذلك قد حدث بالفعل!

تلقى طائرات العالم المصاب بالبله أكياس الطعام قبالة الشاطيء، أكثره طعام للأسماك!

من يقترب من تلك الأرغفة يكون صيدا لقناصة العدو، يتسلون بطائراتهم المسيرة، لقد غدا أطفال غزة ورقة في مقامرة لهذا العالم المجنون، دماؤهم تروي عطش الخيانة لتي ثمل بها العرب!

ومايصل تكون القنابل أسرع في قتل الجوعى، أذكر كم ترنمت بأغنية فيروز»» يازهرة المدائن»

لم تعد غير بيوت مدمرة، وأشلاء تفترسها الكلاب!

ربما نعيش في زمن فقد بوصلته، أتحسس جسدي المقرح وقع السياط أخاديد تجري، الأقبية العفنة، أجساد كالحة، إنها لاتعرف غير أن تقعى تحت أقدام تلقى إليها بالنفايات، تضخمت ذواتها، ترك الجبن الأبيض فعل السحر في أجسادها فباتت كأنها أكثر انتماء لقوم آخرين!

بجوار المدينة أغان تثير غرائز الأعراب، عادوا يرفعون الريان الحمر، تهتز الأرض تكاد أن تميد بهم، لو أن الخراف والغزلان طعام لجوعى غزة؟

يتناهي إلى سمعي:

« أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف»

أدعوك ياربي أن تجعل نار القتلة عليهم بردا وسلاما، ثمة إبليس يخرج لسانه ويضرب بغمازة عينيه:

إنهم صغار اليوم وغدا يثأرون!

اقتلوهم قربانا لرب الجنود!

تكرر زوجتي صياحها:

هات التمر والحليب، أدرك أن الصغار هناك في مهلكة، هل صارت زوجتي مثل هؤلاء الواهمين، أستنكر ذلك؛ إنها طيبة القلب، غير أنها تريد أن تشعر بأنها تعد وجبات ساخنة لأقاربها، تتفاخر بذلك أمام جاراتها.